كتبها د . حامد طاهر

الأربعاء, 31 مارس 2010 13:08 - تم التحديث فى الجمعة, 30 يناير 2015 22:28

كتبها د. حامد طاهر
الأربعاء, 31 مارس 2010 13:08 - تم التحديث فى الجمعة, 30 يناير 2015 22:28

المفهوم المتكامل للإسلام

الإسلام هو آخر دين سماوي ، وهو يتميز بالبساطة ، ويمكن أن تتقبله بسهولة كافة العقول ، ويتجه بتعاليمه إلى الإنسان فى كل زمان ومكان .

وبمجرد أن " يعلن " أى شخص " الشهادة " بأنه " لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " ، يصبح مسلماً ، يمتلك عدداً من الحقوق ، وتفرض عليه بعض الواجبات، فى إطار نظام ديني واجتماعي وثقافي متكامل ، يراعى المتطلبات المادية ، كما يستجيب للطموحات الروحية لكل من الفرد والجماعة .

وبسبب سوء الفهم أحياناً ، والفهم المنقوص للإسلام فى كثير من الأحيان ، وجدت من المفيد عرض المفهوم المتكامل للإسلام ، فى صورته الأولية ، وتبعاً لتاريخ تكونه ، مع الاعتماد على مصادره الأساسية التى ترجع مباشرة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية .

وللإسلام أربعة مقومات رئيسية ، لا يتكامل مفهومه ، ولا يستقر نظامه إلا بها، وهى :العقيدة
،
والشعائر
،
والأخلاق
،
والتشريع
.

والعقيدة ، كما نعلم ، محلها القلب . وهى تتضمن الاعتقاد فى وحدانية الله ، خالق الكون ، وحافظ نظامه ، والمطلع على خفاياه ، والمستحق - وحده - للعبادة وما يصحبها من تضرع وتوبة ، واستعانة .. ، ثم الاعتقاد بالبعث بعد الموت وما يشمله من حساب ، وما

يتبعه من ثواب أو عقاب .

وقد حدد القرآن والسنة عناصر العقيدة فى : الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالقدر : خيره وشره ، وباليوم الآخر .

والمطلوب فى العقيدة أن تكون راسخة فى قلب المسلم ، متمكنة من عقله . وهنا تجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم يدعو كل إنسان أن يتثبت بنفسه من "مصداقية "هذه العقيدة باستعراض التاريخ ، ومصائر الأمم السابقة ، والبحث الدائم فى الكون ، وتأمل ظواهره الطبيعية .. حتى يكون إيمان القلب مؤيداً باقتناع العقل
.

وتحتل العقيدة فى القرآن مكانة أساسية ، باعتبارها المحور الذى تدور حوله حياة المسلم ، وترتبط به . ومن المعروف أن الرسول صلي الله علية وسلم ظل فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، يعلم الناس العقيدة . وحوالى نصف القرآن الكريم يتحدث عنها ، ويعمل على تأكيدها . وفى سبيلها استشهد عدد من المسلمين الأوائل رجالاً ونساءً ، تحت تعذيب المشركين من أهل مكة ، الذين حاولوا بكل الوسائل أن يرجعوهم عن توحيد الله إلى عبادة الأصنام .

والواقع أن العقيدة الإسلامية هى التى تعطى لحياة المسلم معناها وتحدد غايتها. ففى الوقت الذى يتجه فيه بالخضوع إلى مالك السموات والأرض ، يشعر أنه تحت عنايته ، وأن رحمته الحانية تحيط به من كل جانب . إن أعمال الإنسان كلها -فى وجود العقيدة الإسلامية الصحيحة- تصبح متجهة نحو غاية موحدة هى الحصول على رضا الله ، وتجنب سخطه ، وبالتدريج يتكون فى أعماق المسلم نوع من الضمير الأخلاقى الفائق الحساسية لتشكيل مواقفه من الخير والشر ، من الرذيلة والفضيلة ، وهو ما يعرف فى لغة الدين باسم " التقوى "
أما الشعائر الإسلامية فهى أربع :الصلاة ،والصوم ، والزكاة ، والحج.

والصلاة :هى عماد الدين . ومعناها اللغوى : الدعاء . وهى بالفعل مجموعة أدعية ، وآيات قرآنية تجرى تلاوتها فى حركات وأفعال محددة (قيام وركوع وسجود) ويتم أداؤها على انفراد ، أو فى جماعة منتظمة الصفوف يتقدمها " إمام " وهذا أفضل وأكثر ثواباً ، وتقام

خمس مرات فى اليوم والليلة : الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء .

أما يوم الجمعة من كل أسبوع ، فإنه ينفرد بصلاة الجمعة الجامعة ، حيث يشهدها حشد هائل من أهل الحى ، وتسبقها "خطبة" يعرض فيها الإمام إحدى القضايا التى تهم المسلمين ، ويدعوهم إلى التمسك بالدين والاستغفار إلى الله تعالى
.

لكن هل الصلاة مجرد أدعية وأفعال خالية من المضمون الروحى ؟ كلا ، فإنها فى الإسلام عبارة عن لقاء مباشر بين المسلم وربه . والقرآن الكريم يذكر أنه كلما كان المسلم فى حالة السجود كان أقرب ما يكون إلى ربه (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)(سورة العلق ، الآية 19 . (كذ لك يصف القرآن الكريم الصلاة بأنها (تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ
)(
سورة العنكبوت ، الآية 45) وهذا معناه أن الصلاة الحقيقية التى يؤديها المسلم بوعى وخشوع من الطبيعى أن تمنعه عن ارتكاب الجرائم الكبرى ، والمعاصى الصغيرة . ومن المستبعد أن نتصور إنساناً يخرج من لقاء ربه ليستعد إلى لقاء □ □ □ آخر .. ثم يقدم على ما لا يرضاه
!

وقد جاء وصف الصلاة فى القرآن أيضاً بأنها تعتبر - مع الصبر - وسيلة مهمة تساعد المسلم على مواجهة المشكلات اليومية التى يتعرض لها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)(سورة البقرة ، الآية 153) وهذا يعنى أن الصلاة تقوم بدور إيجابى فى حياة المسلم : فبينما تعده لمواجهة مشكلات الحياة اليومية بثبات ، تعطى له فرصة الراحة النفسية بأثرها عليه . ولذلك كان رسول الله صلي الله علية وسلم يقول لبلال ، مؤذن الصلاة فى عهده : " أرحنا بها يا بلال)! "رواه أبوداود ، والدارقطنى.(

وللصلاة شرط أساسى وهو طهارة الجسد بالاغتسال أو الوضوء . ومن الواضح أنها تأتى بعد ذلك لتقوم بتطهير النفس والروح .

وهكذا يتحقق فيها المعنى الذى أشار إليه الرسول صلي الله علية وسلم فى حديث جميل يشبه الصلاة التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم والليلة : باغتسال إنسان خمس

مرات يومياً من نهر يجرى ماؤه أمام منزله. فكما أن هذا الأخير لا يبقى على جسده أى أثر من الاتساخ، فكذلك المؤدى للصلاة: تتطهر نفسه وتصفو (رواه البخارى ومسلم.(

وأخيراً فإن الصلاة - بما تشتمل عليه من أدعية واستغفار واتجاه بالقلب والعقل والجسد إلى الله تعالى - تقوم بدور هام فى ترسيخ العقيدة فى نفس المسلم، وتزويدها بطاقة يومية متجددة.

أما الصوم فهو عبارة عن الامتناع عن الطعام والشراب)والعلاقة الجنسية بين الزوجين) منذ طلوع الفجر حتى غروب الشمس، خلال شهر رمضان من كل عام
.

وقد ذهب البعض فقالوا إن الغرض من الصوم هو أن يحس الغنى بألم الجوع الذى يعانيه الفقير. ولكن الصوم مفروض على جميع المسلمين سواء أكانوا أغنياء أم فقراء.
والأقرب إلى طبيعة هذه الشعيرة أنها تقوم بدور هام فى تعديل عادات المسلم التى ربما تكون قد تكونت على مدى العام: فالملاحظ أنه خلال شهر رمضان تجرى حياة المسلمين جميعاً على نمط واحد يختلف بالتأكيد عن بقية شهور السنة. وبذلك فإن الفرصة تكون مواتية لمن ارتاح إلى عادة سيئة (كشرب القهوة، أو تدخين السجائر ...الخ) أن يقلع عنها بعد شهر رمضان، الذى يفرض عليه الامتناع عن الطعام والشراب وهما من الضروريات.

لكن هناك حكمتان تظهران بوضوح من الصوم، الأولى أنه يعمل على تقوية الإرادة الإنسانية لدى المسلم، والإرادة تعنى هنا القدرة على القرار الذى يتخذه الإنسان بنفسه للامتناع عن كل ما تدعوه المغريات إليه. فطعام الإنسان يكون حاضراً بين يديه ولكنه يمسك عنه التزاماً لتعاليم الدين، وتنفيذاً لأوامر الله، وهكذا فإنه إذا نجح فى امتناعه عن الحلال كان قادراً على الامتناع عن الحرام، مثل أكل أموال الناس بالباطل، واشتهاء نساء الآخرين حراماً.

والحكمة الثانية للصوم تكمن فى إحياء الوازع الدينى (الضمير الإنسانى). ومن الواضح أن الصوم - من بين الشعائر الأخرى - هو العبادة ذات الطابع السلبى، بمعنى أن المسلم حين يؤديها لا تظهر على أعضائه، مثل الصلاة والزكاة والحج. فمن الذى يستطيع أن يميز بين شخص تناول إفطاره فى الصباح وبين شخص آخر لم يتناول شيئاً؟ ومن هنا

كان الصوم " عبادة خاصة جداً " بين المسلم وربه ، لا يطلع عليها غيرهما . وفيها يمتنع الرياء تماماً . الرياء هو أداء العمل للتظاهر به أمام الآخرين ، حتى يكتسب الإنسان محمدة لديهم . لذلك يقول الله تعالى فى حديث قدسى: " كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لى ، وأنا أجزى به)"رواه مسلم. (

إن هذا الوازع الدينى (الضمير) الذى يغرسه الصوم فى نفس المسلم هو ما سبق الحديث عنه تحت اسم " التقوى " ، وهى عبارة عن الإحساس الدائم واليقظ بأن الله تعالى مطلع على كل ما يجول بخواطرنا ، وليس فقط على ما نفعله أو نقوله بعيداً عن أعين الناس .

ثم تأتى بعد الصلاة والصوم الشعيرتان الأخريان ، وهما الزكاة والحج : الأولى لا تجب إلا على الأغنياء ، والثانية تجب فقط على من استطاع إليه سبيلاً .

والزكاة فى اللغة العربية تعنى النماء والطهارة ، وهى عبارة عن إخراج نسبة بسيطة جداً من مقدار معين من المال ، يمضى على ملكيته عام كامل ، دون أن يحتاجه صاحبه . ولا شك فى أن العدالة الإلهية واضحة هنا تمام الوضوح . فالشخص الذى يكسب قوته يوماً بيوم لا تجب عليه الزكاة ، والشخص الذى يمتلك مالاً وفيراً ولكنه مستمر طوال العام فى الإنفاق منه .. لا تجب عليه الزكاة ، وإنما هناك نصاب محدد للزكاة وبشرط أن يكون مستقراً لمدة عام كامل فى ملكية صاحبه .

ومن الممكن أن تنشأ هيئة مختارة لجمع أموال الزكاة من المسلمين ، وكذلك لإنفاقها . وقد حدد الله تعالى فى القرآن الكريم أوجه إنفاق أموال الزكاة . وهى كلها تدور حول مساعدة المحتاجين ، والتخفيف عن الفقراء والمساكين (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (سورة التوبة ، الآية 60) . وبذلك يتحقق من خلال هذه الشعيرة إقامة نوع من التكافل الاجتماعى المطلوب لتوازن حركة المجتمع الإسلامى ، واستمراره .

لكن المسلم الغنى يعلم جيداً أن الزكاة المفروضة عليه لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً من دخله العام . ولذلك فهو مدعو دائماً إلى " التبرع " فى وجوه الخير ، والإصلاح الاجتماعى . ومن هنا ، رأينا الكثير من المسلمين يبنون بأموالهم الخاصة المساجد ، وينشئون

المدارس والمستشفيات ، وحتى بعد موتهم ، يوصون بعمل "الأوقاف الخيرية" التى يصرف عائدها المستمر على الفقراء والمساكين ، بل وعلى الحيوانات والطيور (توجد فى أعلى مسجد "أبوالدهب" وهو المقابل مباشرة للأزهر فى القاهرة : مئذنة ، تعلوها خمسة أوعية ضخمة مفتوحة ، يقال أنها كانت مخصصة لوضع مختلف أنواع الحبوب ، وكذلك الماء : خدمة للحمام والعصافير !)

وإذا كانت الزكاة مفروضة على كل مسلم قادر من الناحية المالية ، فإن الحج وهو الشعيرة الرابعة والأخيرة فى مجال العبادات ، لا يجب إلا على المسلم القادر من الناحية المالية والصحية ، مرة واحدة فى العمر .

والحج :عبارة عن رحلة إلى مكة ، حيث توجد الكعبة :بيت الله الحرام ، الذى أقامه إبراهيم ، عليه السلام ، وأصبح محوراً يتجه إليه مسلمو العالم كله فى صلواتهم اليومية . ويشتمل الحج على عدد من الشعائر أهمها الطواف بالكعبة ، والوقوف على جبل عرفات ، مع إعلان وحدانية الله تعالى ، والخضوع إليه ، والشكر له على ما وهب الإنسان من نعم وعطايا .

فى موسم الحج ، يجتمع المسلمون من شتى بقاع الأرض : شعوباً مختلفة ، ولغات مختلفة ، ليلتقوا على هداف واحد ، ويؤدوا شعائر موحدة . ومن الممكن أيضاً أن يتبادلوا المنافع فيما بينهم ، ويؤكدوا أواصر الأخوة ، ويحددوا أسس التعاون بينهم . ومن الواضح أن المسلم فى وسط هذا الاحتشاد الكبير يشعر بعزة الإسلام الذى يدين به ، والذى دفع هذه الجموع من حوله لكى تلبى نداء واحداً ، وتسعى نحو غاية واحدة . وبذلك تكتمل الدائرة الواسعة ، التى بدأت من الفرد ، وانتهت بالإنسانية كلها : ويتحقق قول الله تعالى فى القرآن) :وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ) (سورة سبأ، الآية 28 (وقوله : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)(سورة الأعراف ، الآية 158
) .

تلك هى الشعائر الإسلامية :بسيطة ، ومتدرجة ، ومترابطة فيما بينها . وأهم ما يلاحظ عليها أنها تؤكد فى نفس المسلم خضوعه لله تعالى ، وخشيته الدائمة له ، والعمل المستمر لنيل رضاه . وهى فى الوقت الذى تربط المسلم بربه ، تقيم أفضل العلاقات بينه وبين الناس من حوله . فالصلاة تؤدى عادة مع أهل الحى ،

والصوم يمنع المسلم من إيذاء المسلمين بيده أو بلسانه ، والزكاة تدعوه للعطاء ، وترقق قلبه للمحتاجين . وأخيراً فإن الحج هو المؤتمر الكبير الذى يظهر فيه لقاء المسلم بإخوته من سائر الشعوب ، وهو لقاء إنسانى ، يعلو فوق اختلاف الأجناس واللغات

.

وهكذا نجد أن المسلم - بعقيدته القوية ، وأدائه الصادق للشعائر - يصبح مؤهلاً ليكون عضواً صالحاً فى مجتمع فاضل . والعضو الصالح هو الذى يتجنب بدافع من ضميره كل الرذائل ، ويتمسك بدافع من ضميره أيضاً بكل الفضائل . وهذا يعنى أنه فى غير حاجة إلى رقابة من رئيس أو مسئول .وهنا نصل إلى المقوم الرئيسى الثالث للإسلام ، وهو الأخلاق .

والأخلاق :جمع خُلُق . والخلق ببساطة هو عبارة عن دافع وسلوك . ويختص الدافع بالنية والإرادة والتصميم ، بينما يشكل السلوك تصرفات الإنسان الخارجية . ومن الواضح أن الدافع هو أساس السلوك . ومن هنا فقد اهتم الإسلام اهتماماً شديداً بتكوين هذا الدافع تكويناً ممتازاً . ويبدأ هذا التكوين من ربطه بالعقيدة، وتجديده المستمر بالشعائر ، حتى يصبح المسلم ، ونيته متجهة دائماً للحصول على رضا الله ، وتصميمه أكيد على عدم عصيان أوامره ، مع الإحساس المستمر بأن الله تعالى رقيب على حركة نفسه ، مطلع على أدق خواطره .

لكن الأخلاق لا تظهر إلا فى سلوك . وهذا السلوك يتطلب وجود أشخاص آخرين يجرى التعامل معهم فى إطار علاقات متبادلة . ويمكن القول عموماً بأن العلاقات التى تدور فيها تصرفات الإنسان تتمثل فى ثلاث دوائر رئيسية هى : دائرة الأسرة والجيران ، دائرة الأصدقاء وزملاء العمل ، دائرة المسلمين وغيرهم .

وفى معاملة الأقارب ، يبرز التعبير الإسلامى المشهور "صلة الأرحام" ومعناه دوام المودة ، والعطف ، والمساعدة ، والمتابعة لجميع الأقارب .

وفى مقدمة الأقارب ، تحتل معاملة الوالدين مكانة خاصة جداً ، فالرسول صلي الله علية وسلم يقول لأحد المسلمين ، حين سأله عن موضوع الإنفاق على والده "أنت ومالك

لأبيك"(رواه ابن ماجه والطبرانى) أما الأم فلها كل العطف والرعاية
"

الجنة تحت أقدام الأمهات " (رواه القضاعى فى مسند الشهاب ، والخطيب البغدادى فى الجامع) . إن طاعة الوالدين فى الإسلام مطلقة . ولا تستثنى إلا حالة واحدة فقط ، وذلك عندما يدعوان ابنهما إلى الشرك بالله
.

ولعلنا لم نحس بقيمة التعاليم الإسلامية الرحيمة بالأبوين إلا عندما ظهر فى العصر الحديث ما يسمى بـ "بيوت المسنين" ، وفيها يدفع الأبناء أحياناً بآبائهم وأمهاتهم الكبار فى السن إلى أماكن مخصصة لرعايتهم صحياً وثقافياً ، ولكنها تخلو بالتأكيد من دفء العلاقة الحميمة التى يدل عليها تعبير الإسلام " صلة الأرحام . "

كذلك يتيح الإسلام كل الظروف الملائمة لمعاملة الزوجة معاملة كريمة ، تبدأ من مسئولية الإنفاق عليها ، وتلبية كل حاجاتها المادية ، حتى أدق التفاصيل التى تدعو المسلم - مثلاً - إلى أن يخاطبها بكنيتها "يا أم فلان " بدلاً من استخدام اسمها المباشر ، تكريماً لها ، وحفاظاً على احترامها داخل المنزل . ولما يعرف الإسلام زواج القهر . فالحرية مكفولة تماماً للزوجين فى بدء الزواج . وكذلك فى الاستمرار فيه بالمعروف والحسنى
.
أما إذا تعذرت الحياة بينهما لأى سبب ، فإن الطلاق هو الحل . ومع ذلك ينبغى أن يكون الرجل كريماً جداً فى هذا الموقف . يقول الله تعالى
) :
فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)(سورة البقرة ، الآية 229
)
ومعناه : إما زواج يستمر بالحسنى ، أو انفصال يتم بالإكرام
.

وأما ما نسمع عنه أحياناً من إجبار بعض الفتيات المسلمات على الزواج بمن لا ترغبن فيه ، أو سوء معاملة بعض الأزواج لزوجاتهم ، أو استخدام حق الطلاق استخداماً مؤذياً . . فكل هذه حالات ناشئة عن طبائع وحشية ، وتصرفات غير مسئولة ، لا يقرها الإسلام ، ولم تأمر بها تعاليمه .

كتبها د. حامد طاهر
الأربعاء, 31 مارس 2010 13:08 - تم التحديث فى الجمعة, 30 يناير 2015 22:28

أما معاملة الجار : فتحتل فى مجال الأخلاق الإسلامية مكانة كبرى ، ولها فائدة عظيمة لا تخفى على المهتمين بأحوال الاجتماع البشرى . يقول الرسول صلي الله علية وسلم " مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه "(رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وابن حنبل) ومعنى هذا أنه يعتبر امتداداً للأسرة .فالمسلم مطالب أن يعود جاره عند المرض ، ويواسيه فى النكبات ، ويشاركه فى الأفراح ، ويواصل مودته بالهدايا والدعوات . ومن المؤكد أن احترام هذه العلاقة هى التى جعلت من " الحى السكنى " فى المجتمع الإسلامى وحدة عضوية مترابطة فيما بينها ، يلاحظ ذلك أى سائح أجنبى يزور أحد البلاد الإسلامية ذات التقاليد العريقة

.

وإذا كانت " المدينة " بحياتها العصرية ، الموغلة فى التقوقع والفردية ، قد مزقت بعض الروابط الإسلامية بين الجيران فإن الأحياء الشعبية ومناطق الريف الواسعة مازالت تحتفظ حتى الآن بالكثير من هذه الروابط .

ثم إن المسلم فى معاملة أصدقائه وزملائه فى العمل نموذج جيد للمعاونة ، "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً "(رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى) . والإيثار الناجم عن الأخوة فى الله ، وينص الحديث النبوى على

"

أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه " ، يقول صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "(رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حنبل) . والصدق ، والوفاء بالوعد ، ورد الأمانة لأصحابها ، وإسداء المشورة لمن يحتاجها ، والسعى الدائم فى قضاء مصالح الأصدقاء

.

وفى مجال معاملة المسلمين عموماً ، نجد الحديث النبوى يعرف المسلم بأنه هو الذى : يسلم المسلمون من لسانه ويده ، فيقول صلي الله علية وسلم : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) "رواه مسلم) أى الذى لا يؤذى أحداً بفعل ، ولا بقول . وفى هذا الإطار ، يأتى تطهير الطرق من القاذورات أو الأحجار التى قد تكون سبباً لإلحاق الأذى بالمارين فيه .

وإذا كان كف الأذى أمراً سلبياً فى مظهره ، فإن هنالك جوانب إيجابية كثيرة جداً منها : إلقاء التحية على الجالسين أو العابرين ، ورد تحية الآخرين بأحسن منها، والاستئذان قبل دخول بيوت الغير ، وغض البصر عن النساء الأجنبيات ، والمجادلة عند الحوار بالحسنى ، والوعظ بالحكمة .. هذا بالإضافة إلى إكرام الضيف ، وإطعام الجائع ، وإيواء الغرباء الذين لا مأوى لهم .

وبالنسبة إلى غير المسلمين ، الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى ، وهم غالباً من اليهود والنصارى ، فلهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . وهم يتلقون من المسلم الحقيقى كل احترام لشعائرهم ، ويحل له تناول طعامهم ، والتزوج من نسائهم ، وإذا حدث جدال معهم ، فلا يجادلهم إلا بالتى هى أحسن

.

كذلك فإن التعامل الاقتصادى معهم مباح . وقد توفى رسول الله صلي الله علية وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى . ومن أزواج الرسول صلي الله علية وسلم مارية القبطية التى أنجبت له ابنه إبراهيم

.

وعمر بن الخطاب t، الخليفة الثانى للمسلمين ، أعطى فقراء أهل الكتاب نصيباً من بيت مال المسلمين ، كما أسقط الجزية (الضريبة) من على القساوسة والرهبان . وعلى مدى التاريخ الإسلامى ، كان أطباء الخلفاء والحكام فى الغالب من اليهود والنصارى ، وقدمت لهم الحضارة الإسلامية أفضل الفرص لحياة كريمة ومزدهرة . ولم يحدث اضطهاد إلا فى عصور التعصب والتخلف ، وعلى أيدى أشخاص لم يفهموا روح الإسلام وإنما تصرفوا بدوافع خاصة من طبيعتهم الفاسدة

.

ولا تتوقف الأخلاق الإسلامية على التعامل مع الناس فقط بل إنها تمتد فتشمل الحيوانات والطبيعة بما فيها من جماد ونبات .

فالأرض فى نظر القرآن مكان للزرع ، وليست ميداناً للتدمير . والبحار مسخرة لنقل الإنسان والبضائع ، واستخراج الطعام الجيد ، وليست مجالاً للمناورات الحربية . والرسول صلي الله علية وسلم ينهى المسلمين - فى حالة الحرب - أن يقطعوا شجرة إلا لطعام . أما

الحيوانات ، فالإسلام بها رفيق للغاية : لا ينبغى على الإنسان أن يقيم صراعاً بينها (كما يحدث فى صراع الديكة) ، أو يستخدمها فيما لم لتخلق من أجله (مثل صراع الثيران الوحشى). وعندما رأى رسول الله صلي الله علية وسلم عصفورة ترفرف بجناحيها قرب الأرض ، قال لأصحابه : " من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها "(سنن أبى داود . (

ويروى عن الرسول صلي الله علية وسلم أنه قال : دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت (رواه البخارى ومسلم . (

كما روى عنه صلي الله علية وسلم أن رجلاً أصابه ظمأ شديد فنزل بئراً ليرتوى من مائها ، فلما خرج منها رأى كلباً يلهث ، يلحس الثرى من العطش ، فقال " :لقد أصاب هذا الكلب من الظمأ مثل الذى أصابنى " ، فنزل البئر وملأ خفه وسقى الكلب ، فغفر له(رواه البخارى ومسلم
) .

هذه مجرد لمحة سريعة عن بعض جوانب الأخلاق الإسلامية وهى كثيرة ومتنوعة . حتى ليمكن القول بأن الإسلام كله أخلاق .

والرسول صلي الله علية وسلم يؤكد أنه إنما بُعث ليتمم مكارم الأخلاق (مسند ابن حنبل وموطأ مالك). وهو يقول عن نفسه : " أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى "(رواه ابن السمعانى فى أدب الإملاء . (

أما السيدة عائشة زوج الرسول صلي الله علية وسلم فإنها عندما سئلت عن أخلاق الرسولصلي الله علية وسلم أجابت قائلة : " كان خلقه القرآن "(رواه مسلم وأبوداود وابن حنبل) وهذا يعنى أن الرسول صلي الله علية وسلم يمثل فى حياته العملية : النموذج الأكمل الذى تحققت فيه جميع الأخلاق والآداب التى دعا إليها القرآن الكريم . وفى هذا دلالة واضحة على أن المبادئ والقيم الأخلاقية الإسلامية - على الرغم من سموها ومثاليتها - قابلة دائماً للتحقيق العملى فى حياة البشر .

دخل الحسن بن على ، وهو صبى ، على رسول الله صلي الله علية وسلم ، وقد سجد ، فركب على ظهره ، فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن عنه فلما فرغ قال له بعض أصحابه : يا

رسول الله ، قد أطلت سجودك فقال : " إن ابنى ارتحلنى ، فكرهت أن أعجله "(سنن النسائى ومسند ابن حنبل .(

وأكل يوماً الرطب في يمينه ، وكان يحفظ النوى فى يساره ، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ ، وانصرفت الشاة (مسند ابن حنبل). ويكفى أنه القائل : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " (رواه مسلم .(

وأخيراً ، فإن الأخلاق فى الإسلام تكاد تنظم كل ألوان السلوك الفردى ، وهى تنبع كلها من " تقوى الله " ، والشعور الأكيد بأنه الحكم العدل الذى لا يظلم أحد مثقال ذرة من خير أو شر ، وبذلك يتأكد للحياة الأخلاقية أساسها الذى تقوم عليه ، وهو هنا الجزاء الإلهى ، الذى يعاقب على السيئة بما تستحقها ، ويكافئ الحسنة بعشرة أمثالها .

وهكذا لا نصل إلى المقوم الرابع للإسلام ، وهو التشريع ؟ إلا بعد بناء يكون قد استقر بالفعل على العقيدة والشعائر والأخلاق . وليس التشريع سوى مجموعة القوانين والأحكام التى تنتظم حياة الفرد والجماعة الإسلامية بها ، هذا بالإضافة إلى تحديد عقوبات الجرائم الهامة .

والتشريع :الإسلامى غنى جداً ومتنوع . وقد تكفل علم " الفقه " ببيان أحكامه المختلفة التى تتعلق بالعبادات (وأشكال أدائها) والمعاملات (المالية مثل البيع والشراء والرهن والضمان .. الخ) والأحوال الشخصية (مثل الزواج والطلاق والميراث .(

وقد لاحظ علماء القانون ، مثل غيرهم ، ما يتميز به التشريع الإسلامى من عدالة وسماحة ، ومراعاة لمصالح الناس ، وعدم إحراجهم بالتكاليف الصعبة ، أو غير المعقولة . ومن المؤكد أن هذه الأسباب كانت وراء سرعة انتشار الإسلام واستقراره فى بلاد كانت ذات حضارات سابقة ، ونظم تشريعية قديمة .

ويغطى التشريع الإسلامى كل جوانب الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية ، كما يضع الأسس والمبادئ الكفيلة بإقامة مجتمع سياسى متطور ، ونشاط اقتصادى مزدهر ومتوازن .
فللفرد فى نظام الإسلام حق الحفاظ على حياته ، ومعتقده وعرضه ، وماله .. وللأسرة

كيانها المتماسك الذى يحظى بكل احترام ، وللمرأة فيه كل التقدير ، بدءاً من حريتها المطلقة فى قبول الزوج ، ومروراً بأهليتها الكاملة خلال الزواج ، واحتراماً لرغبتها الحقيقية فى طلب الانفصال عند وجود ما يدعو لذلك .

أما السياسة فى المجتمع الإسلامى فلها أهدافها المحددة : وأهمها على الإطلاق توفير العدالة والمساواةبين أفراد المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار ، والحفاظ على تعاليم الدين من عبث العابثين فى الداخل ، وكيد أعدائه من الخارج . أما وسائل السياسة فأهمها الشورى ، التى تتضمن عموم المشاركة من الجميع .

وأما الاقتصاد فأساسه احترام الملكية الخاصة ، والعمل على ازدهار نشاط الأفراد ، وتشجيع المنافسة الشريفة من أجل الصالح العام . وله ضوابط تتمثل فى تحريم الربا ، ومنعالاحتكار ، ومحاربة الغش ، فإذا أضيف إلى ذلك ما تقدمه الزكاة والصدقة من موارد للمحتاجين والمنكوبين أدركنا أن النظام الاقتصادى فى الإسلام هو فى نفس الوقت نظام اجتماعى وأخلاقى من الطراز الأول .

تبقى إشارة سريعة إلى عقوبات الجرائم فى الإسلام . وهى عقوبات رادعة لمن يستبيح إيذاء المسلمين فى أنفسهم ، أو أموالهم ، أو أعراضهم . ومما يلاحظ أن الإسلام قد اكتفى - فى هذا المجال -بتحديد العقوبات للجرائم الكبيرة ذات الأثر السئ فى بناء المجتمع الفاضل ، فى حين أنه ترك الجرائم الصغيرة للمسئولين يضعون لها العقوبات التى تناسب كل بيئة
(
وهو ما يطلق عليه اسم : التعزير
).

والجرائم التى قدر القرآن الكريم عقوبتها خمس ، وهى : القتل بنوعيه (العمد والخطأ (، وقطع الطريق والإفساد فى الأرض وأيضاً السرقة ، والزنا ، والقذف
.

وهنا ملاحظتان على العقوبات الإسلامية . الأولى : تتعلق بضرورة التثبت الدقيق جداً من فاعلها ، وقصده إلى ذلك ، مع عدم وجود أى شبهة تمنع تطبيق العقوبة عليه . فإن الرسول

صلي الله علية وسلم قال : (ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم) (رواه ابن عدى والسمعانى) أى عند ظهور أى شبهة ، لا تقيموا الحد .وهذا يعنى من حيث الواقع تضييق دائرة هذه العقوبات ما أمكن .

والملاحظة الثانية : ما قد يبدو من القسوة فى هذه الحدود . والواقع أن الإسلام يقدر العقوبة على قدر الجرم ، ومدى : إفساده فى استقرار المجتمع الصالح الذى يدعو لإقامته . ولو تأملنا جيداً تلك الجرائم السابقة لوجدناها تمثل اعتداء واضحاً على حقوق المجتمع ، مع ما فى ذلك من استهانة بنظمه وقوانينه .

وقد أثبتت التجارب أن تطبيق العقوبات الإسلامية على مرتكبى تلك الجرائم قد أثمر أفضل النتائج ، وكان وسيلة " رادعة " قللت بالفعل من نسبة الجريمة ، وحصرتها فى أضيق نطاق .

وفى النهاية ، تجدر الإشارة إلى أن الحديث عن الجرائم وعقوباتها لا يستغرق من التشريع الإسلامى إلا جزءاً ضئيلاً جداً .أما الأجزاء الكبرى فهى التى تتجه إلى إقامة مجموعة من النظم السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، تعتمد على مبادئ أخلاقية يتميز بها مجتمع المسلمين من غيره .

والأمر الملاحظ على التشريع الإسلامى أنه - مع احتوائه على عدد من الثوابت أى الأحكام المحددة فى القرآن والسنة - فإنه يشتمل أيضاً على عدد من المتغيرات التى تتيح الفرصة للمسلمين فى شتى العصور والبيئات أن يستنبطوا من الأحكام ما يناسب مصالحهم فى ضوء تلك الثوابت ، وهذا ما يمنح الشريعة الإسلامية قدراً كبيراً من المرونة التى تجعلها حية ، ومتطورة ، وصالحة بالفعل لكل زمان ومكان .

وفى الختام ، لابد من التأكيد على أن الإسلام ، الذى استوعب كل تعاليم الأديان السماوية السابقة عليه ، لا يمثل مذهباً يتعالى على المذاهب الأخرى ، بل إنه لا يسعى إلى إقامة دولة تتصارع مع غيرها من الدول . وإنما هو دين عالمى شامل ، جاء لخير البشرية كلها فى دنياها و آخرتها ، واتجه بدعوته إلى البشر جميعاً ، يقول الله تعالى مخاطباً محمداً صلي الله علية وسلم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) (سورة سبأ، الآية 28) ، ويقول أيضاً (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (سورة الأنبياء ، الآية 107 . (

ملخص ما سبق